د. ابراهيم عوض

موقف القرآن الكريم والكتاب المقدس من العلم

١٩٨٧

د. ابراهيم عوض

موقف القرآن الكريم والكتاب المقدس من العلم

١٩٨٧م

بســـم الله الرحمن الرحيم

الإهـــــداء

إلى أسرتي الصغيرة التي لا أكف عن الدعاء إلى الله أن يبارك فيها : زوجتي ، ويمنى « الفراشة الرقيقة » ، وعلاء الدين « الأسد الصغير » . جمعنا الله على الخير والسعادة في الدنيـــا ، وفي رياض الخـــلد في الآخــرة .

مقـــــدمة

رشحني قسم اللغة العربية وآدابها بكلية الآداب (جامعة عين شمس) أنا والأستاذ الدكتور مصطفى الشكعة ، للاشتراك فى المؤتمر الدولى الأول للإعجاز العلمى فى القـرآن والسنة ، الذى كان مقررا له أن ينعقد فى أول أكتوبر المـاضى (ثم تأجل إلى الثامن عشر من نفس الشهر) بإسلام أباد عاصمة باكستان ، فكتبت البحث الذى بين يدى القارىء الكريم ، وأرسلته إلى هيئة الإعجاز العلمى فى القرآن والسنة (بمكة المكرمة) المشرفة على المؤتمر ، فأحالته إلى لجنة التحكيم الخاصة بالنظر فى مثل هذه البحوث فأجازته وأثنت مشكورة على ما بذلته فيه من « جهد علمى واضح » (وهذه عبارة الرسالة التى وصلتنى لا عبارتى أنا ، فأرجو أن يعذرنى القارىء) ، ودعت لى بالخـير . ومع ذلك فإنى للأسف لم أسافر لحضور المؤتمر ، لأن تذاكر السفر التى وعدت بها لم تصلنى ، لتأخرى فى الـرد على الرســالة المذكورة أعلاه ، لظروف خارجة عن إرادتى ، إذ كنت عند وصولها مسافرا إلى جمهورية جامبيـا فى غرب إفريقية ، فلما عـدت تسلمتها بعد فـوات الأوان ، وبالتالى تأخـر ردى وإرسالى الملخصين المطلوبين (بالعربية والإنجليزية) عن الموعد المحدد .

وقد علمت من مقالة الأستاذ فهمى هويدى : « الإعجــاز القرآنى : المصالح والمفاسد ! » ، المنشورة بأهرام الثــلاثاء ٣/١١/١٩٨٧ (ص/٧) أن عدد البحوث التى قدمت للمؤتمر قد بلغت خمسمــائة بحث ، وأن الذى أجيز منهــا هو ثمانية وسبعون بحثا فقط ، فسرنى هذا سرورا عوضنى إلى حد كبير عن حضور المؤتمر والسفر إلى باكستان الشقيقة • والحمد لله ، الذى هو أهل كل حمد •

حدائق القبة ٢٣/١١/١٩٨٧

بســم الله الرحمــن الرحيــم

إذا تتبعنا فى كل من الكتاب المقدس والقرآن الكريم الآيات التى تتحدث عن العلم والمعرفة (١) فسوف نجد الملاحظات الآتية:

أن كلا الكتابين يعد العلم والمعرفة هبــة من عند الله سبحانه • يقول الكتاب المقدس : « وكلم الرب موسى قائلا : انظر • قد دعوت بصلئيل بن أورى بن حور من سبط يهوذا باسمه ، وملأته من روح الله بالحكمة والفهم والمعرفة وكل صنعة ••• وهأنا قد جعلت معه أهولياب بن أخيساماك من سبط دان ، وفى قلب كل حكيم القلب جعلت حكمة ليصنعــوا كل ما أمرتك » (٢) • وفى موضع آخر نرى سليمان عليه الســلام يدعو الله أن يمده بالحكمة والمعرفة : « فأعطنى الآن حكمــة

---

(١) بالنسبة لآيات الكتاب المقـدس اعتمـدت على الكتابين التاليين : "Cambridge Companion to the Bible" و "Cruden's Concordance" أما بالنسبة لآيات القرآن فقد كان معولى فى تتبعها على « المعجـم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم » لمحمد فؤاد عبد الباقى •

(٢) خروج /٣١/١ ـ ٣ ، ٦ • وانظر أيضا خروج /٣٥/ ٣٠ ـ ٣٦ •

ومعرفة لأخرج أمام هذا الشعب وأدخل » (٣) ، فيرد المولى جل وعلا عليه بقوله : « قد أعطيتك حكمة ومعرفة ، وأعطيك غنى وأموالا وكرامة » (٤) • وها هو داود يرجو ربه أن « ذوقا صالحا ومعرفة علمنى » (٥) • وفى سفر « الأمثال » : « لأن الرب يعطى حكمة • من فمه المعرفة والفهم » (٦) • وفى « دانيال » : « يعطى (الله) الحكماء حكمة ويعلم العارفين فهما » (٧) •

وفى القرآن الكريم نقرأ قوله عز من قائل : « علم الإنسان مالم يعلم » (٨) ، وقوله سبحانه عن آدم عليه السلام : « وعلم آدم الأسماء كلها » (٩) ، وقوله تعالى عن يوسف عليه السلام : « وإنه لذو علم لما علمناه » (١٠) ، وقوله سبحانه عن العبد الصالح (فى قصة موسى عليه السلام) : « وعلمناه من لدنا علما » (١١) ، وقوله جل شأنه عن داود عليه السلام : « وعلمناه صنعة لبوس لكم » (١٢) ، وقوله تبارك وتعالى عن رسولنا

---

(٣) أخبار الأيام الثانى /١/١٠ •
(٤) أخبار الأيام الثانى /١/١٢ •
(٥) مزامير /١١٩/٦٦ •
(٦) أمثال /٢/٦ •
(٧) دانيال /٢/٢١ •
(٨) العلق / ٥ •
(٩) البقرة / ٣١ •
(١٠) يوسف / ٦٨ •
(١١) الكهف / ٦٥ •
(١٢) الأنبياء / ٨٠ •

الكريم صلوات الله وسلامه عليه : « وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة ، وعلمك ما لم تكن تعلم » (١٣) ، وقوله عز شأنه فى خطاب المؤمنين : « واتقوا الله ، ويعلمكم الله » (١٤) .

فمن هذه النصوص يتبين لنا أن كلا الكتابين ينظر إلى المعرفة ، سواء كانت معرفة عقلية أو روحيه أو صناعية تطبيقية، على أنها عطية إلهية . وهذا طبيعي ، فكلا الكتابين يدعو إلى الإيمان بالله سبحانه وأنه خالق كل شيء ، وإن شابت الإيمان بالله فى الكتاب المقدس شوائب كثيرة تتفاوت بين السفاهة من جانب والشرك بالله من جانب آخر .

أما موقف الكتابين من المعرفة والعلم والحكمة فالكتاب المقدس يقول : « طوبى للإنسان الذى يجد الحكمة وللرجل الذى ينال الفهم . لأن تجارتها خير من تجارة الفضة ، وربحها خير من الذهب الخالص . هى أثمن من اللآلىء وكل جواهرك لا تساويها » (١٥) . وفى سفر « الأمثال » نقرأ أن « كون النفس بلا معرفة ليس حسنا » (١٦) . وفى إشعياء : « سبىَ شعبى لعدم المعرفة » (١٧) . وفى هوشع : « قد هلك شعبى من عدم

(١٣) النساء / ١١٣ .
(١٤) البقرة / ٢٨٢ .
(١٥) امثال /٣/ ١٣ ـ ١٥ . وانظر اضا امثال /٨/ ١٠ ـ ١١ .
(١٦) امثال /١٩/ ٢ .
(١٧) إشعياء /٥/ ١٣ .

المعرفة » [١٨] •

وبالمثل يغبط القرآن الكريم من آتاه الله الحكمة ، وبعدها خيرا كثيرا : « يؤتى الحكمة من يشاء • ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا » [١٩] ، ولا يسوى بين العلماء والذين لا يعلمون : « قل : هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟ » [٢٠] • والله سبحانه يرفع المؤمنين الذين أوتوا العلم درجات عالية لا يرقى إليها غيرهم : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » [٢١] •

لكن على حين نجد أن نظرة القرآن إلى العلم مطردة على هذا النحو فإن فى الكتاب المقدس آيات أخرى تناقض الآيات السابقة التى استشهدنا بها منه آنفا ، ففى سفر « الجامعة » أن معرفة الحكمة ، مثلها مثل معرفة الحماقة والجهل ، هى قبض الريح ، وأن « فى كثرة الحكمة كثرة الغم • والذى يزيد علما يزيد حزنا » [٢٢] ، ومن هنا فإن « الدرس الكثير تعب للجسد » ، بمعنى أنه تعب لا يجدى على صاحبه شيئا [٢٣] • كذلك يؤكد

---

(١٨) هوشع ٤/ ٦ •
(١٩) البقرة / ٢٦٩ •
(٢٠) الزمر / ٩ •
(٢١) المجادلة / ١١ •
(٢٢) الجامعة ١/ ١٧ ـ ١٨ •
(٢٣) الجامعة ١٢/ ١٢ •

بولس أن الله « مرجع الحكماء إلى الوراء ومجهل معرفتهم » (٢٤) ، وأنه قد جهل « حكمة هذا العالم » ، وأنه قد « اختار ... جهال هذا العالم ليخزي الحكماء » (٢٥) ، وأن « حكمة هذا العالم هي جهالة عند الله » ، « وأيضا الرب يعلم أفكار الحكماء أنها باطلة » . وعلى هذا فـ « إن كان أحد يظن أنه حكيم بينكم فى هذا الدهر فليصر جاهلا لكى يصير حكيما » (٢٦) .

إن كاتب مادة Science فى Dictionary of the Bible يدافع عن موقف بولس تجاه العلم كما تعكسه الآيتان ١ ، ٧ من الأصحاح الثامن من رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس (ونص كلامه هو : « وأما من جهة ماذبح للأوثان فنعلم أن لجميعنا علما . العلم ينفخ ، ولكن المحبة تبنى . فإن كان أحد يظن أنه يعرف شيئا فإنه لم يعرف شيئا بعد كما يجب أن أن يعرف ... ولكن ليس العلم فى الجميع ، بل أناس بالضمير

---

(٢٤) إشعيباء /٤٤/ ٢٥ .

(٢٥) رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس /١/ ٢٠ ، ٢٧ . وانظر ص / ١٠٧٩ (آخر السطر التاسع وما بعده) من مبحث Le Christianism et L'âme antique. لمؤلفيه Pierre Rousselot و Joseph Hubby حيث يشير الباحثان إلى حملة بولس على « حكمة هذا العالم » . (والبحث منشور فى كتاب Christus, Manuel d'histoire des religions بإشراف Joseph Hubby) .

(٢٦) رسالة بولس الثانية إلى أهل كورنثوس /٣/ ١٨ ـ ٢٠ .

نحو الوثن إلى الآن يأكلون كأنه مما ذبح لوثن • فضميرهم إذ هو ضعيف يتنجس ») ، فيزعم أنه لا يقصد به دراسة مخلوقات الله (أو كما سماها هو « أعمال الله : The works of God ») بل كان هجومه منصبا على المعرفة التى كانت تفتخر بها الفرق المتهودة والباطنية فى عصره ، على عكس المعرفة الحقيقية التى كان يشيد بها أيما إشادة (٢٧) • والحقيقة أن مثل هذا الدفاع لا يصمد للنظر ، فإن هجوم بولس على الحكماء وعلمهم غير مقصور ، كما رأينا ، على الآيتين السابقتين • ثم إن جميع المعارف أيا كانت إنما هى ، على نحو أو على آخر ، دراسات لمخلوقات الله • وقد كان الأحرى ببولس ، لو كان فعلا يقصد ما يقوله الكاتب المذكور ، أن يهاجم غرور العلماء فقط لا العلم نفسه والحكمة ، فإن العلم والحكمة لا يمكن أن يكونا إلا خيرا ، وخيرا كثيرا •

وليس بولس هو وحده الذى ينظر إلى المعرفة والعلم هذه النظرة ، فها هو يوحنا الرسول يقول فى رسالته الأولى إن مسحة التعميد للذين لم يعاصروا المسيح كفيلة بعدم احتياج

---

(٢٧) انظر مادة « "Science" » من Dictionary of the Bible لمحرره Wm Smith مجلد / ٣ ص / ١١٦٠ ـ ١١٦١ • وانظر كذلك تفسيرا قريبا من هذا ، ولكن بدون هذا التفصيل فى A New Commentary on the Holy Scripture Including the Apocrypha لمحرريه Ch. Gore و H.L. Goudge و A. Guillaume ص / ٤٩١ (النهر الأيسر) •

الممسوح إلى أن يعلمه أحد لأن هذه المسحة تعلمه كل شيء (٢٨) .

إن هذا الاضطراب فى موقف الكتاب المقدس نحو العلـم والمعرفة يعسر فهمه وتفسيره إلا على أساس واحد هو أنه، على وضعه الحالى ، صناعة بشرية . ولست أوافق الدكتور موريس بوكاى على قوله إن « الأمر الذى لا جدال فيه هو أنه ليست هناك أية إدانة للعلم فى أى كتـاب مقـدس من كتـب أديان التوحيد » ، (٢٩) فها هى نصوص من الكتاب المقدس لـدى اليهود والنصارى تفند هذا الادعاء ، ولعل تفسير ذلك هو أن هذا الكتاب قد خضع لكثير من الحذف والإضافة وإعادة الصياغة والنحل مما باعد بينه وبين أصله الإلهى ، وجعل من الصعب فى بعض الأحيان ، ومن المستحيل فى أحيان أخرى أن نقول إن الدينين اللذين يقدسه أتباعهما قد بقيا دينى توحيد .

ومع ذلك فقد بقيت فى الكتاب المقدس قبسات من نـور الوحى الإلهى . ولعل من هذه الأقباس الإلهية مـا جـاء فى « الأمثال » من أن « مخافة الرب رأس المعرفة » (٣٠) ، وهو ما يذكرنا بقول الله سبحانه فى القرآن الكريم : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » (٣١) .

---

(٢٨) رسالة يوحنا الرسول الأولى /٢/ ٢٠ ، ٢٧ .

(٢٩) د. موريس بوكاى / القرآن والتوراة والإنجيل والعلم ـ دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعـارف الحديثة / ١٤٠ .

(٣٠) أمثـال /١/ ٧ .

(٣١) فاطـر / ٢٨ .

وقد يكون من هذه الأقباس أيضا ما يفهم من المثل الآتي الذى أورده لوقا فى إنجيله على لسان سيدنا عيسى عليه السلام من أنه لا مسؤولية بدون علم ، وعلى قدر العلم تكون المسؤولية، إذ مع العلم ينتفى العذر ويحق على المذنب العقاب • أما من لم يبلغه العلم فهو معذور : « فقال الرب : فمن هو الوكيل الأمين الحكيم الذى يقيمه سيده على خدمه ليعطيهم العلوفة فى حينها ؟ طوبى لذلك العبد الذى إذا جاء سيده يجده يفعل هكذا • بالحق أقول لكم إنه يقيمه على جميع أمواله • ولكن إن قال ذلك العبد فى قلبـــه : سيدى يبطىء قـــدومه • فيبتـــدىء يضرب الغلمان والجوارى ويأكل ويشرب ويسكر • يأتى سيد ذلك العبـــد فى يوم لا ينتظره وفى ساعة لا يعرفها فيقطعه ويجعل نصيبـــه مع الخائنين • وأما ذلك العبد الذى يعلم إرادة سيدم ولا يستعد ولا يفعل بحسب إرادته فيضرب كثيرا • ولكن الذى لا يعلم ويفعل ما يستحق ضربات يضرب قليلا • فكل من أعطى كثيرا يطلب منه كثير ، ومن يودعونه كثيرا يطالبونه بأكثـــر » (٣٢) • وفى مثل هذا المعنى ما جاء فى إنجيل يوحنا على لســـان سيدنا عيسى أيضا عليه السلام : « قال لهم (للفريسيين) يسوع : لو كنتم عميانا لما كانت لكم خطية • ولكن الآن تقولون : إننا نبصر • فخطيتكم باقية » (٣٣) فالعمى هنا هو عدم المعرفة ، أما الإبصار فهو العلم بالواجبات والمسؤوليات • ويشبه هذا فى خطـــوطه

---

(٣٢) إنجيـــل لوقـــا /١٢/ ٤٢ ـ ٤٨ •

العامة قول بولس فى رسالته إلى العبرانيين : « فإنه إن أخطأنا باختيارنا بعد ما أخذنا معرفة الحق لا تبقى بعد ذبيحة عن الخطايا بل قبول دينونة مخيف وغيرة نار عتيدة » (٣٤) ، إذ مع معرفة الحق والباطل والصواب والخطإ ينتفى العذر ، وعلى هذا فلابد من العقاب ما دام الآثم قد اجترح الإثم عن اختيار .

فإذا انتقلنا إلى القرآن فإننا نجده يذم اليهود ذما شديدا لإقدامهم على تحريف الوحى مع علمهم أن هذا إثم فاحش : « كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون » (٣٥) ، وينذرهم قائلا : « لا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون » (٣٦) . كما نجده يحذر المؤمنين من الإشراك بالله بعدما علموا أن التوحيد حق : « فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون » (٣٧) ، ويوجه نظر الرسول عليه الصلاة والسلام على سبيل ضرب المثل إلى أنه « لئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا نصير » (٣٨) و « لئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين » (٣٩) .

---

(٣٤) الرسالة إلى العبرانيين / ٣٦/١٠ .
(٣٥) البقرة / ٧٥ .
(٣٦) البقرة / ٤٢ .
(٣٧) البقرة / ٢٢ .
(٣٨) البقرة / ١٢٠ .
(٣٩) البقرة / ١٤٥ .

وقد فهم المرحوم الشيخ شلتوت من قولــه تعــالى : « ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم • وساءت مصيرا » (٤٠) أن من لم يعلم بالحق بمعنى أنه لم يبلغه أو بلغه وعلم به ولكن على نحو محرف ، أو علم به على وجهه الصحيح ولكنه لــــم يستطع الاقتناع به رغم أنه لم يقصر فى ذلك على مدى عمره فهذا لا يناله الوعيد الإلهى بالإصلاء فى جهنم (٤١) • ومثله قول الشيخ محمد عبده إن الإسلام يجعل من النظر العقلى وسيلة الإيمان الصحيح ، حتى لقد قال قائلون من أهل السنة : « إن الذى يستقصى جهده فى الوصول إلى الحق ثم لم يصل إليـــه ومات طالبا غير واقف عند الظن فهو ناج » (٤٢) •

من هذا كله نرى أن العلم هــو أساس المسؤولية ، وأنه لا مسؤولية بلا علم ، على أن يكون مفهوما طبعا أن العلم والسعى إليه هو واجب كل مسلم ومسلمة • أما فى الكتاب المقدس فإن معرفة الشريعة إنما تستمد من الكاهن ، « لأن شفتى الكاهن تحفظان معرفة ، ومن فمه يطلبون الشريعـــة لأنه رسول رب الجنود » (٤٣) • وهو فرق جد هام بين القرآن والكتاب المقدس

---

(٤٠) النســـاء / ١١٥ •

(٤١) انظر الشيخ محمود شلتوت / تفسير القرآن الكريم / الأجزاء العشرة الأولى / ٢٣٦ ـ ٢٣٧ •

(٤٢) الشيخ محمد عبده / الإسلام بين العلم والمدنيـــة / ١١٨ ـ ١١٩ • وانظر أيضا كتابه « رسالة التوحيد » / ١٨ ـ ١٩ •

(٤٣) مـــلاخى /٢/٧ •

فيما يختص بهذه المسألة •

والآن بعد أن اتضح لنا موقف كل من الكتاب المقدس والقرآن الكريم من العلم ورأينا أنه على حين يطرد تمجيد القرآن للعلم نجد هذا الاطراد معدوما فى الكتاب المقدس ، ننتقل إلى موقف الكتابين من منهج البحث فى العلوم ، إذ قد يقول قائل إن مجرد الحث على طلب العلم وتفضيله على غيره من النعم هو كلام عام ، فنحب أن نرى هل يمكن أن نعثر فى كل من الكتابين على توجيهات وأفكار محددة من شأنها أن تنزل بنا من أفق التعميم إلى أرض المنهج الصلبة •

وقبل أن نبحث عن الآيات المتصلة بهذا الموضوع علينا أن نعرف معنى « التفكير العلمى » ونلم بخصائصه إلماما سريعا •

يقول د• توفيق الطويل : « ينسب التفكير العلمى إلى المشتغلين بالعلم الطبيعى • ويراد اليوم بالعلم الطبيعى كل دراسة تصطنع منهج الملاحظة الحسية ، والتجربة العلمية إن كانت ممكنة ، وتتناول الظواهر الجزئية فى عالم الحس ، وتستهدف وضع قوانين لتفسيرها ، بالكشف عن العلاقات التى تربط بينها وبين غيرها من الظواهر ، وصياغة هذه القوانين فى رموز رياضية ، وذلك للسيطرة على الطبيعة والإفادة من مواردها وتسخير ظواهرها لخدمة الإنسان فى حياته الدنيا » (٤٤) •

---

(٤٤) د• توفيق الطويل / فى تراثنا العربى والإسلامى / ٧ ـ ٨ •

ويفصل د٠ توفيق الطويل القــول فى خصائص التفكير العلمى ، التى يمكن تلخيصها على النحو التالى :

١ ــ البدء بتطهير العقل من معلوماته السابقة [٤٥] ٠

٢ ــ الملاحظة الحسية كمصدر وحيد للحقائق [٤٦] ٠

٣ ــ نزوع العلم الحديث إلى التكميــم [٤٧] ٠

٤ ، ٥ ــ موضوعية البحث ونزاهة الباحث [٤٨] ٠

٦ ــ الاعتقاد فى مبــدأ الحتمية [٤٩] ٠

٧ ــ توافر الثقافة الواسعة للعلماء [٥٠] ٠

ولا يخرج عن ذلك ما قاله د٠ أحمد زكى من أن « العلم مؤسس على التجربة يجريهــا العالم ويرقــم نتائجها ، وعلى الملاحظة يأتيها ، ويرصد نتائجها ، ثم هو يعمل عقله فى هــذه النتائج من بعد ذلك » [٥١] ٠ ويشير همايون كبير إلى أهميــة

---

(٤٥) الســابق / ٠٩

(٤٦) الســابق / ١٤ ٠

(٤٧) الســابق / ٤٢ ٠

(٤٨) الســابق / ٤٧ ٠

(٤٩) الســابق / ٥٢ ٠

(٥٠) الســابق / ٥٧ ٠

(٥١) د٠ أحمــد زكى / مع الله فى السماء / ١٩ ٠

الإيمان باتساق الطبيعة واطراد قوانينها والإيمان بقيمة الوحدات الفردية وأهمية ملاحظتها فى مجال العلم وتطوره (٥٢).

مما سبق يتبين لنا أن المنهج العلمى يقوم على الإيمان بأن العلم محيط لا ساحل له ، وأن وسائل الإنسان إلى تحصيل العلم هى حواسه وعقله ، التى ينبغى أن تكون مفتوحة ويقظة دائما للطبيعة وظواهرها من حوله كى يتسنى له استخلاص القوانين التى تحكمها بعد التثبت من كل ما يلاحظه ويستنبطه .

فأما فى الكتاب المقدس فقد بحثت فيه تحت نفس العناوين التى بحثت تحتها فى القرآن فلم أجد فيه ما وجدته فى القرآن من آيات تتصل بمبادىء المنهج العلمى اتصالا وثيقا . وأما القرآن ففيه آيات كثيرة تبرز سعة آفاق العلم وعدم انتهائها عند حد ، كقوله تعالى : « سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون » (٥٣) . « والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ، ويخلق ما لا تعلمون » (٥٤) . « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » (٥٥) . « وفوق كل ذى علم عليم » (٥٦) . ثم هذه الآية التى يأمر فيها العليم الحكيم رسوله

---

(٥٢) همايون كبير / العلم والديمقراطية والإسلام / ٩ - ١٢ ، ١٩ ـ ٢٠ .
(٥٣) يس / ٣٦ .
(٥٤) النحل / ٨ .
(٥٥) الإسراء / ٨٥ .
(٥٦) يوسف / ٧٦ .

محمدا عليه الصلاة والسلام أن « قل : رب ، زدنى علما » (٥٧) • إن هذه هى المرة الوحيدة فى القرآن التى يأمر فيها الله رسوله أن يستزيد من شىء • ولنلاحظ أن المأمور بذلك هو محمد ، الذى كان يتنزل عليه الوحى صباح مساء • وكذلك هذه الآية التى يسوى فيها القرآن بين الجهاد فى سبيل الله وطلب العلم ، إذ يسمى كلا منهما « نفرا » ، والتى يحض فيها المؤمنين أن يبقى مع الرسول فى المدينة ، حين لا يخرج للغزو مع الجيش ، من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين : « وما كان المؤمنون لينفروا كافة • فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون » (٥٨) • صحيح أن العلم هنا هو العلم الدينى ، بيد أنه ينبغى ألا يفوتنا أن هذا هو المجال العلمي الوحيد الذى كان يتتابع فيه ظهور الجديد كل يوم ، وأحيانا كثيرة فى مدى زمنى أقصر من ذلك ، على عكس ما يسمى الآن بالعلوم التجريبية ، التى كانت معارف العرب فيها فى ذلك الحين مجرد شظايا بدائية ساكنة لا يلحقها تطور أو تجديد • والعبرة على كل حال بمبدإ التخصص وتهيئة الدولة المناخ المناسب لعكوف العالم على علمه وتشجيعه بل حثه على ذلك •

---

(٥٧) طـه / ١١٤ •

(٥٨) التوبة / ١٢٢ • وانظر فى تفسير هذه الآية واختلاف المفسرين فى فهم « النفر » هنا تفسيرى لسورة « التوبة » /٢٢١ ـ ٢٢٣ •

كذلك ما أكثر الآيات القرآنية التى تتحدث عن نعم السمع والبصر والعقل وتمن بها على العباد بما يدل على جلالة وظيفتها : « وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون » (٥٩) . « وهو الذى أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة » (٦٠) « وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة . قليلا مـا تشكرون » (٦١) . « وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة » (٦٢) .

وأيضا ما أكثر الآيات التى تحض على النظر والتأمل فى الملكوت ووقائع التاريخ : « فلينظر الإنسان إلى طعامه * أنا صببنا الماء صبا * ثـم شققنا الأرض شقا * فأنبتنا فيهـا حبا * وعنبا وقضبا * وزيتونا ونخلا * وحدائق غلبا * وفاكهة وأبا * متاعا لكم ولأنعامكم » (٦٣) . « فلينظر الإنسان مـم خلـق * خلـق من مـاء دافق * يخـرج من بين الصلـب والترائب * إنه على رجعه لقادر » (٦٤) . « أفلم ينظروا فى ملكوت السماوات والأرض ؟ » (٦٥) . « أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ؟ كانوا أشـد منهـم

(٥٩) النحـــل / ٧٨ .
(٦٠) المؤمنـــون / ٧٨ .
(٦١) السجـــدة / ٩ والملـــك / ٢٣ .
(٦٢) الأحقـــاف / ٢٦ .
(٦٣) عبـــس / ٢٤ ـ ٣١ .
(٦٤) الطـــارق / ٥ ـ ٨ .
(٦٥) الأعـــراف / ١٨٥ .

قـوة » (٦٦) . « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم : كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج * والأرض مددناها وألقينا فيهـا رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ؟ » (٦٧) . « أفلا ينظرون إلى الإبل : كيف خلقت ؟ * وإلى السماء : كيف رفعت ؟ * وإلى الجبـال : كيـف نصـبت ؟ * وإلى الأرض : كيـف سطحت ؟ » (٦٨) . « قل : سيروا فى الأرض فانظروا : كيف بدأ الخلق ؟ ثم الله ينشىء النشأة الآخرة » (٦٩) .

وإلى جانب هذه الآيات هناك مواضع أخرى يعنف فيهـا القرآن من لا يستخدمون حواسهم وعقولهم تعنيفا شديدا لدرجة أنه يهبط بهم إلى ما دون مرتبة العجماوات . قال تعالى : « لهـم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لايبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها . أولئك كالأنعام ، بل هم أضل » (٧٠) . « إن شر الدواب عند الله الصم البـكم الذين لا يعقلون » (٧١) . « أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها ؟ فإنها لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » (٧٢) .

---

(٦٦) الـروم / ٩ .
(٦٧) ق / ٦ ـ ٧ .
(٦٨) الغـاشية / ١٧ ـ ٢٠ .
(٦٩) العنكبـوت / ٢٠ .
(٧٠) الأعـراف / ١٧٩ .
(٧١) الأنفـال / ٢٢ .
(٧٢) الحـج / ٤٦ .

والإنسان فى القرآن مطالب بالتفكير قبل أن يؤمن أو يكفر ، حتى يكون إيمانه أو كفره عن بينة : « قل : إنما أعظكم بواحدة : أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا » (٧٣) • « أو لم يتفكروا ؟ ما بصاحبهم من جنة » (٧٤) • « أو لم يتفكروا فى أنفسهم ؟ » (٧٥) ، ومطالب كذلك بالتفكير بعد الإيمان ، إذ من صفات المؤمنين أنهم هم « الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السماوات والأرض » (٧٦) •

وفى مجال التثبت نجد القرآن يحذر دائما من الوقوف عند الظن ، إذ لابد من العلم اليقينى : « وما لهم بذلك من علم • إن هم إلا يظنون » (٧٧) • « إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس » (٧٨) • « إن يتبعون إلا الظن • وإن الظن لا يغنى من الحق شيئا » (٧٩) • بل يبلغ موقف القرآن من الظن وعدم الاعتداد به الحد الذى يدعو عنده إلى اجتناب الكثير من الظن لأن بعضه إثم ، فهو حذر الوقوع فى القليل غير المتعين ينبذ الكثير : « يا أيها الذين آمنوا ، اجتنبوا كثيرا من الظن • إن

---

(٧٣) سبأ / ٤٦ •
(٧٤) الأعراف / ١٨٤ •
(٧٥) الروم / ٣٠ •
(٧٦) آل عمران / ١٩١ •
(٧٧) الجاثية / ٢٤ •
(٧٨) النجم / ٢٣ •
(٧٩) النجم / ٢٨ •

بعض الظن إثم » (٨٠) .

ولا يقف التثبت فى القرآن عند اطراح الظن ، بل لابد من البرهان : « فقلنا (أى قال المولى سبحانه) : هاتوا برهانكم » (٨١) . « إن عندكم من سلطان (أى برهان قاطع) بهذا » (٨٢) . « قل : هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ؟ » (٨٣) . « إيتونى بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين » (٨٤) .

وعلى الإنسان أن يرجع فيما يجهله إلى أهل الاختصاص : « ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم » (٨٥) . « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » (٨٦) . ولا يصح فى مجال العلم الاعتداد بالآراء المتوارثة لمجرد شيوعها وترديد الأجيال لها . ومن هنا كانت حملة القرآن شعواء على المقلدين لأسلافهم : « قالوا : بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا » (٨٧) . « قالوا : حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا » (٨٨) . « وإذا فعلوا فاحشة قالوا : وجدنا عليها

---

(٨٠) الحجرات / ١٨ .
(٨١) القصص / ٧٥ .
(٨٢) يونس / ٦٨ .
(٨٣) الأنعام / ١٤٨ .
(٨٤) الأحقاف / ٤ .
(٨٥) النساء / ٨٣ .
(٨٦) النحل / ٤٣ والأنبياء / ٧ .
(٨٧) البقرة / ١٧٠ .
(٨٨) المائدة / ١٠٤ .

آباءنا » (٨٩) . « قالوا : أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا ؟ » (٩٠) . « قالوا : بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا » (٩١) . « قالوا : إنا وجدنا آباءنا على أمة ، وإنا على آثارهم مهتدون » (٩٢) . « قالوا : إن وجدنا آباءنا على أمة ، وإنا على آثارهم مقتدون » (٩٣) .

وبالنسبة للنظام الكونى وما يجرى عليه من قوانين مطردة هناك هذه الآيات التى تتحدث عن السنة والتقدير والقدر والوزن والميزان ، وهى كلها ألفاظ تعنى ما يعنيه مصطلح « قوانين الطبيعة » أو « القوانين الكونية » . ففى مجال التاريخ والحضارة وطباع البشر وانهيار الأمم نقرأ هذه الآيات : « وإن يعودوا (أى الكفار اكفرهم وإجرامهم) فقد مضت سنة الأولين » (٩٤) . « سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا . ولا تجد اسنتنا تحويلا » (٩٥) . « سنة الله فى الذين خلوا من قبل . وكان أمر الله قدرا مقدورا » (٩٦) . « ولن تجد أسنتنا تبديلا » (٩٧) .

---

(٨٩) الأعراف / ٢٨ .
(٩٠) يونس / ٧٨ .
(٩١) لقمان / ٢١ .
(٩٢) الزخرف / ٢٢ .
(٩٣) الزخرف / ٢٣ .
(٩٤) الأنفال / ٣٨ .
(٩٥) الإسراء / ٧٧ .
(٩٦) الأحزاب / ٣٨ .
(٩٧) الأحزاب / ٦٢ والفتح / ٢٣ .

« فلن تجد لسنة الله تبديلا ، ولن تجد لسنه الله تحويلا » [٩٨]٠ « قد خلت من قبلكم سـنن » [٩٩] ٠ « يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم » [١٠٠] ٠

أما الآيات التالية فهى تتحدث عن القانون فى مجال الظواهر الطبيعية : « والقمر قدرناه منازل » [١٠١] ٠ « هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل » [١٠٢] ٠ « وخلق كل شىء فقدره تقديرا » [١٠٣] « وكل شىء عنده بمقدار » [١٠٤] ٠ « وإن من شىء إلا عندنا خزائنه ٠ وما ننزله إلا بقدر معلوم » [١٠٥] ٠ « وأنزلنا من السماء ماء بقدر » [١٠٦]٠ « فجعلناه (أى ماء الإنسان) فى قرار مكين ✽ إلى قدر معلوم » [١٠٧] ، « وجعلنا فيها رواسى ، وأنبتنا فيها من كل شىء موزون » [١٠٨] ٠ « والسماء رفعها ووضع الميزان ✽ ألا تطغوا فى الميزان » [١٠٩] ٠

---

(٩٨) فاطر / ٤٣ ٠
(٩٩) آل عمران / ١٣٧ ٠
(١٠٠) النساء / ٢٦ ٠
(١٠١) يس / ٣٩ ٠
(١٠٢) يونس / ٥ ٠
(١٠٣) الفرقان / ٢ ٠
(١٠٤) الرعد / ٨ ٠
(١٠٥) الحجر / ٢١ ٠
(١٠٦) المؤمنون / ١٨ ٠
(١٠٧) المرسلات / ٢١ ـ ٢٢ ٠
(١٠٨) الحجر / ١٩ ٠
(١٠٩) الرحمن / ٧ ـ ٨ ٠

بعد استعراض هذه الآيات ، وهى مجرد أمثلة ، يستغرب الإنسان كيف يجرؤ مؤلف Promotion de l'Islam على الزعم بأن الحضارة الإسلامية هى نتاج غير طبيعى لشخصية محمد وطبيعة الإسلام ، لأن الرسول (كما يقول) كان أميا ، والإسلام (فى نظره) لا يهتم إلا بالحياة الآخرة ، فكيف تكون النتيجة إذن هى هذه الحضارة الإسلامية المزدهرة التى تعلمت منها أوربا ؟ والإجابة عنده هى أن الإسلام قد ورث ثقافة الإغريق والبيزانطيين والفرس (١١٠) • وهو يتهم الإسلام بفقدان قوى الأصالة والإبداع التى يتطلبها قيام الحضارة (١١١) ، ويؤكد أن من بين ما يحتاجه الإسلام من الغرب اقتباس المنهج التجريبى والروح التحليلية والعقلية الناقدة (١١٢) • ولكن سرعان ما يزول استغراب الإنسان لهذه المزاعم حين يعرف أن صاحبها رجل دين ، فرجال الدين من المستشرقين هم أسخفهم عقلا وأعماهم تعصبا وأضيقهم أفقا وأجرؤهم على الكذب إلا قليلا منهم • والسؤال هو : ترى لو أن القرآن والرسول لم يحضا على المجد والتفوق فى الدنيا وطلب العلم واتباع مبادىء المنهج العلمى المؤسسة على اليقين والتثبت والتساؤل وتقليب النظر والملاحظة واستقراء القانون

---

(١١٠) Georges Marchal, Promotion de l'Islam pp. 40-41, 50-51.

(١١١) السابق / ٤١ ، ٥٢ •

(١١٢) السابق / ٥٦ •

أكانت هذه الثقافات التى ورثها المسلمون تؤدى فى أيديهم إلى شىء ؟ لقد كان هذا التراث بين أيدى الأوربيين فى ذات الوقت فكيف لم يستفيدوا منه مجرد استفادة ، ولا أقول : ينتقدوه ويضيفوا إليه ويطوروه ويصبغوه بشخصيتهم وعبقريتهم كما فعل المسلمون ؟ الجواب هو أن كتابهم المقدس ، وإن مجد العلم فى بعض آياته ، فإنه فى آيات أخرى يحتقره وينفر منه • وهو على أية حال لا يدعو إلى التفكير واستخدام العقل والتأمل فى أحوال الأمم ومظاهر الطبيعة والتثبت من كل رأى أو فكرة قبل اعتناقها ، وذلك على عكس الإسلام ، الذى يذكر مؤلف كتاب Christ et Bahâu'llàh أن من بين خصائصه التى تميزه « حرية الفكر والتوافق بين الدين والعلم » (١١٣) •

هذا فيما يتعلق بموقف كل من الكتاب المقدس والقرآن من العلم ومن التفكير القائم على مبادىء المنهج العلمى من ملاحظة يقظة وتفكير متثبت مدعوم بالبراهين وبعد عن الظن وتأمل فى نظام الكون وسننه ومقاديره • والآن إلى النقطة الأخيرة الخاصة بما ورد فى كل من الكتابين من معارف علمية : تاريخية أو طبيعية ، لنرى مدى موافقة هذه المعارف لما هو مقطوع

---

(١١٣) George Townshend, Christ et Bahá'u'llah, p. 41.
وانظر ص / ٥٩ حيث يؤكد أن العرب كانوا سادة الدنيا فى وقتهم فى العلوم التجريبية •

بصحته من العلم أو مخالفته لها مخالفة لا تقبل تأويلا كائنا ما كان •

لقد أثبتت الدراسات العلمية الموضوعية أن الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد مفعم بأخطاء تاريخية وحسابية وعلمية فادحة يستحيل أن يجد المؤول لها مخرجا على وجه من الوجوه • ومن هذه الدراسات ما نهض به ابن حزم بصبر ودقة عجيبين ويقظة عين وعقل قل أن يوجد لها بين الباحثين نظير ، وذلك فى العشرات بعد العشرات من الصفحات ذات القطع الكبير •

ولست أنوى أن أعرض بل ولا حتى أن أشير مجرد إشارة إلى كل ما درسه ابن حزم من أخطاء فاحشة يعج بها الكتاب المقدس ، فكتابه « الفصل فى الملل والأهواء والنحل » ، الذى يتضمن هذه الدراسة مطبوع فى الأسواق ، ويستطيع القارىء أن يرجع إليه بنفسه ، وأنا ضمين له بأنه سيجد فيه ألوانا رفيعة من الفوائد العلمية والمتع العقلية • ولكنى سأجترىء ببعض أمثلة أرجو أن تغرى القارىء بقراءة الأصل كله •

قال ابن حزم : « وبعد ذلك قال : ونهر يخرج من عدن فيسقى الجنان • ومن ثم يفترق فيصير أربعة أرؤس • اسم أحدها النيل ، وهو محيط بجميع بلاد زويلة الذى به الذهب • وذهب ذلك البلد جيد • وبها اللؤلؤ وحجارة البلور • واسم الثانى جيحان ، وهو محيط بجميع بلاد الحبشة • واسم الثالث

الدجلة ، وهو السائر شرق الموصل • واسم الرابع الفرات • وأخذ الله آدم ووضعه فى جنات عدن » (١١٤) • ولا أظننى بحاجة إلى أن أورد تفنيد ابن حزم لهذا الكلام ، فسخفه ظاهر لكل ذى عينين • وقال ابن حزم فى موضع آخر : « وبعد ذلك قال : وأولاد يعقوب اثنا عشر • فأولاد ليئة : رؤابين بكر يعقوب وشمعون ولاوى ويهوذا ويساخر وزبولون • وأبناء راحيل : يوسف وبنيامين • وابنا بلهة : راحيل دان ونفتالى • وابنا زلفة أمة ليئة : جادا وأشير • هؤلاء بنو يعقوب الذين ولدوا له بفدان أرام • قال أبو محمد رضى الله عنه (أى ابن حزم) : هذا كذب ظاهر ، لأنه ذكر قبل أن بنيامين لم يولد ليعقوب إلا بأقراشا بقرب بيت احم على أربعة أميال من بيت المقدس بعد رحيله من فدان أرام بدهر • والله تعالى لا يتعمد الكذب ولا ينسى هذا النسيان » (١١٥) • ويقول ابن حزم أيضا : « وفى الباب المذكور أن المسيح قال لهم : أتاكم يحيى وهو لا يأكل ولا يشرب ، فقلتم : هو مجنون • ثم أتاكم ابن الإنسان (يقصد نفسه) يأكل ويشرب ، فقلتم : هذا صاحب خوان شروب للخمر خليع صديق للمستخرجين والمذنبين • قال أبو محمد رضى الله عنه : فى هذا الفصل كذب ••• فإنه قال هاهنا إن يحيى كان

---

(١١٤) ابن حزم / الفصل فى الملل والأهواء والنحل حـ/١/٩٥ • والنص موجود فى سفر « التكوين » /٢/١٠ ـ ١٥ مع بعض الاختلافات فى أسماء الأعلام •

(١١٥) السابق حـ/١/١١٢ • والنص موجود بنفس عبارته تقريبا فى سفر « التكوين » /٣٥/٢٣ ـ ٢٦ •

لا يأكل ولا يشرب حتى قيل فيه إنه مجنون من أجل ذلك • وفى الباب الأول من إنجيل مارقش أن يحيى بن زكريا هذا كان طعامه الجراد والعسل الصحراوى • وهذا تناقض ، وأحد الخبرين كذب بلا شك » (١١٦) • « وفى الباب السابع والعشرين من إنجيل متى أنه صلب معه لصان أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره • وكانا يشتمانه ويتناولانه محركين رؤوسهما ، ويقولان : يا من يهدم البيت ويبنيه فى ثلاث ، سلم نفسك • إن كنت ابن الله فانزل عن الصليب • وفى الباب الخامس عشر من إنجيل مارقش أنه صلب معه لصان أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله • واللذان صلبا معه كانا يستعجزانه (١١٧) • وفى الباب الموفى عشرين من إنجيل لوقا (هو فى الأصحاح الثالث والعشرين فى الإنجيل الذى فى أيدينا الآن) : وكان أحد اللصين المصلوبين معه يسبه ويقول : إن كنت أنت المسيح فسلم نفسك وسلمنا • فأجابه الآخر وكشر عليه وقال : أما تخاف الله وأنت فى آخر عمرك وفى هذه العقوبة ؟ أما نحن فكوفئنا بما استوجبنا ، وهذا لا ذنب له • ثم قال ليسوع : يا سيدى ، اذكرنى إذا نلت ملكوتك • فقال له يسوع : آمين • أقول لك اليوم تكون معى فى الجنة (١١٨) • قال أبو محمد : إحدى القضيتين كذب بلا شك ،

---

(١١٦) الفصل حـ/٢/١٨ • والنص موجود ، مع اختلاف يسير فى العبارة ، فى إنجيل متى /١١/١٨ ـ ١٩ •

(١١٧) انظر فى هذه القصة وتفصيلاتها متى /٢٧/٣٦ ـ ٤٤ •

(١١٨) انظر لوقا /٢٣/٣٩ ـ ٤٣ •

لأن متى ومارقش أخبرا بأن اللصين جميعا كانا يسبانه • ولوقا يخبر بأن أحدهما كان يسبه والآخر كان ينكر على الذى يسبه ، ويؤمن به • والصادق لا يكذب فى مثل هـذا • وليس يمكن هاهنا أن يدعى أن أحد اللصين سبه فى وقت وآمن به فى آخر ، لأن سياق خبر لوقا يمنع من ذلك ويخبر أنه أنكر على صاحبـه سبه إنكار من لم يساعده قط على ذلك • وكلهم متفق على أن كلام اللصين وهـم ثلاثتهـم مصلوبون على الخشب ، فوجب ضرورة أن لوقا كذب أو كذب من أخبره ، أو أن متى كذب وكذب مارقش أو الذى أخبره ولابد » (١١٩) •

ولا يظن ظان أن المسلمين وحدهم هـم الذين يرون فى الكتاب المقدس هذا الرأى فإن العلماء الغربيين يقولونه ، بل يشاركهم فيه كثير من رجال الدين • فكاتب مادة Christianity فى دائرة المعارف البريطانية يؤكد أن منطق النصرانية وفلسفتها ومعارفها العلمية هى نتاج ينتمى إلى عصور تاريخية مضت ، وأن ذلك كان خطوة فى طريق التطور العلمى ، وأن الزعم بأنـه يمثل الحقيقة المطلقة هو زعم لا يساوى عناء الرد عليه (١٢٠) •

وفى أحـد تفـاسير الكتـاب المقـدس (وعنـوانه (A New Commentary on Holy Scripture, Including the Apocrypha أن سفر « التكوين » لا يشتمل على المعلومات الصحيحـة

---

(١١٩) الفصـل حـ/٢/٤٤ •

(١٢٠) Encyclopaedia Britannica, Vol. 5, p. 636.

الخاصة بالبدايات الحقيقيــة للأرض نفسهــا أو تلــك الخاصة بالإنسان والحضارة الإنسانية عليها • ومثال ذلك أن بدايات العالم والبشرية ترجع إلى زمن أبعد من التاريخ الذى ورد فى سفر « التكوين » بمــدى لا يمكن قياسه ، وأن ترتيب ظهــور المخلوقات على مسرح الوجود كما هو مذكور فى الأصحاح الأول من سفر « التكوين » لا يتفق مع الحقائق الجيولوجية (١٢١) • بل إن هذا التفسير يضع سفر « التكوين » فى مرتبــة أدنى من الوثائق البابلية والمصرية القديمة التى تتضمن نفس الأحــداث والشخصيات التاريخية (١٢٢) •

وفى تفسير آخر للكتاب المقدس William Neil's One Volume Bible Commentary أن مقاســـات الفـــلك الذى صنعه نوح ، كما وردت فى الكتاب المقــدس ، وسعته من الداخل لا تتناسب أبدا مع الأعداد الغفيرة والمتنوعة لركابه ، الذين كان عليهم أن يعيشوا فيه ويأكلوا (١٢٣) ، وأننا لو أخذنا ما جاء فى سفر « التكوين » عن الفيضان على حرفيته لكان علينا أن نصدق أن هذا الفيضان قد غمر وجه البسيطة كلهــا بعمــق خمسة أمتار ، وهو ما لا علاقة له بالتاريخ البتة (١٢٤) • ويرجع

---

(١٢١) A New Commentary on Holy Scripture Including the Apocrypha ص / ٣٨ •

(١٢٢) الســـابق / نفس الصفحــة •

(١٢٣) William Neil's One Volume Bible Commentary, p. 31.

(١٢٤) الســـابق / ٣٢ •

التفسير المذكور ذلك إلى أنه لم تصلنا أية سجلات مكتوبة لتاريخ بنى إسرائيل إلا بعد إبراهيم بألف عام ، وأن ما هو مكتوب فى سفر « التكوين » إنما كتب بعد ذلك بعدة قرون ، ولذلك لا ينبغى أن نتوقع الدقة التاريخية بمعناها الحالى فى هذه الأصحاحات لا فى الأحداث ولا فى الحوار (١٢٥) . كذلك يذكر أن الصيغة الحالية للعهد القديم لا ترجع إلى أبعد من ثلاثمائة سنة قبل عيسى عليه السلام على أبكر تقدير ، أى بعد تسعة قرون من حدوث الوقائع التى يحكيها سفر « العدد » (١٢٦) . وهو ما يقوله تقريبا التفسير الذى سلفت الإشارة إليه ، إذ يؤكد أنه لا يوجد حاليا أى عالم له أى حظ من الشهرة يعتقد أن التوراة ، على ما هى عليه الآن ، قد كتبها موسى (١٢٧) .

أما إدوارد كلد فإنه يشير فى كتابه Childhood of Religions إلى أنه حتى فى ترجمة الكتاب المقدس إلى الإنجليزية توجد أخطاء بعضها متعمد ، وبعض هذه كانت بأمر الملك نفسه ، وأن هذه الأخطاء يجرى تصحيحها من قبل العلماء الأثبات ، وأن هناك إضافات (بالحروف المائلة) فى الترجمة لم تكن فى الأصل ، وأن هذه الإضافات تجعل المعنى فى بعض الأحيان غامضا (١٢٨) .

---

(١٢٥) السابق / ٤١ . وانظر أيضا ص / ١٢٠ .

(١٢٦) انظر السابق / ١٢٠ ـ ١٢١ .

(١٢٧) A New Commentary on Holy Scripture p. 20.

(١٢٨) Edward Clodd, Childhood of Religions, pp. 233-234.

وبعد فهذه مجرد أمثلة سريعة • ويمكن للقارئ الذى يريد الاستزادة أن يرجع بنفسه إلى الكتب المذكورة هنا وما أشارت إليه من مراجع ، وكذلك إلى الكتاب القيم الذى ألفه د• موريس بوكاى ونشرته دار المعارف مترجما إلى العربية بعنوان « القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم ــ دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة » •

والآن يثور السؤال الآتى : ماذا كان رد الفعل لدى المؤمنين بالكتاب المقدس بعد تعرية ما يتضمنه من أخطاء تاريخية وعلمية فادحة ؟ إن عقيدة الكتاب المقدس تقوم على أن الوحي هو كلام الله لفظا ومعنى • ولكن المحدثين أصبحوا يعترفون بدور لكاتب الوحى فى عملية التدوين (١٢٩) • إنهم يفرقون بين الوحى من ناحية الشكل وبينه من ناحية المضمون • فمن الناحية الأولى يرون أنه خلق أدبى للكاتب • ومن الناحية الثانية يقولون إنه صادر عن الله (١٣٠) • إن الوحى ، فى نظرهم ، لا يلغى شخصية الكاتب ، بل إن ظروفه تتدخل فى الصياغة ، ويمكن أن يقع تحريف فى النص ، ومن ثم فلابد ، كما يقولون ، من عملية النقد والتمحيص (١٣١) • وهو نفس ما قاله من قبل معجم Hook's Church Dictionary ،

---

(١٢٩) انظر مادة "Inspiration" من The New Bible Dictionary بإشراف J. D. Douglas ص / ٥٦٤ •
(١٣٠) السابق / ٥٦٥ •
(١٣١) السابق / ٥٦٦ •

الذى يرى أن الأنبياء وكتبة الكتاب المقدس قد أدوا ما تلقوه من الوحــى كمــا هــو بدون أدنــى خطــإ (من النــاحية اللاهوتية) ، ولكن هــذا لا يصــدق على الأخطاء النحــوية والعلميــة (١٣٣) •

إذن فقد تم الاعتراف بما فى الكتاب المقدس من أخطــاء تاريخية وعلمية ، بيد أن المؤمنين به ، كما رأينا ، لا يسلمــون بسهولة ، إذ اخترعوا نظرية لتسويغ استمرار إيمانهم بــــه رغم هذه الأخطاء • وهذه النظرية تتلخص فى أن ما فيه من أفكار ومعتقدات لاهوتية ومبادىء أخلاقية مصدره الله ، أما المعلومات العلمية فهى بشرية تفسرها ثقافة كاتب الوحى ومزاجه ودرجة التقدم العلمى فى عصره • والقائلون بهذا يرددون أن خلاص البشر لا يتوقف على دقة المعلومات التاريخية والعلمية ، فهذه المعلومات نتاج بشرى ، وهى تخضع لسنة التطور ، وأنه لا يمكن من ثمة مطالبة كاتب الوحى بسبق زمانه ، وأن الكتــاب المقدس ليس كتــابا مدرسيا ، أى أن وظيفتــه ليست تقــديم معلومات علمية دقيقة (١٣٤) •

---

(١٣٢) Hook's Church Dictionary, p. 403.

(١٣٣) الســـابق / ٩٦٤ •

(١٣٤) انظ New Commentary on Holy Scripture, p. 39; William Neil's One Volume Bible Commentary, pp. 13-14; Stanley Cook, An Introduction to the Bible, pp. 192-193 and C.H. Dodd, The Authority of the Bible, pp. 17, 23, 26, 28.

لقد تحطمت النظرية القديمة حول عصمة الكتاب المقدس إذن على أيدى البحوث العلمية والتاريخية • والحق أنه لولا أننا مقيدون بعنوان هذا البحث لبينا كيف أن الجانب اللاهوتى والأخلاقى هو أيضا لم يسلم من الأخطاء والتحريفات • وصدق الله العظيم ، الذى يقول فى قرآنه فى أهل الكتاب : « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون : هذا من عند الله ، ليشتروا به ثمنا قليلا • فويل لهم مما كتبت أيديهم ، وويل لهم مما يكسبون » (١٣٥) •

ومع ذلك فإن النظرية الجديدة لا تحل المشكلة ، بل تعكس تهربا من الحقيقة الساطعة ، حقيقة أن الكتاب المقدس ، كما هو الآن ، ليس وحيا إلهيا ، وإن لم يخل كما سبق القول من قبسات من النور الإلهى • لقد نسى أصحاب هذه النظرية أن صياغة الوحى الإلهى فى عبارات تتضمن معلومات علمية خاطئة لابد أن يكون لها تأثير ضار على هذا الوحى ، إذ يفقده قداسته • وإن الإنسان ليتساءل : لماذا ترك الله سبحانه المضمون العقيدى والأخلاقى يكتسى ثوبا لا يليق به ، ثوبا مهلهلا على النحو الذى رأينا ؟ كيف لم يوح سبحانه المضمون والشكل دفعة واحدة ؟ لقد قيل فى تسويغ هذا إن الله سبحانه لا يتكلم بأصوات وكلمات ، ولذا فهو قد اكتفى بالإيحاء بالفكرة (١٣٦) • ولكن

---

(١٣٥) البقرة / ٧٩ •
(١٣٦) انظر C.H. Dodd / ٢٦ •

قائلى هذا قد نسوا أيضا أن الله سبحانه لا يفكر كما نفكر ، فكيف يقال إنه أوحى بالفكرة ولم يوح باللفظ ما دام الأمر فى الحالين واحدا ؟ أو على الأقل لم كان لابد أن يصوغ متلقى الوحى المضمون الإلهى فى عبارات تتضمن معلومات خاطئة ؟ ولم لم يجنبه الله الأخطاء التى وقع فيها ؟ وهذا طبعا إن سلمنا بصحة المضمون العقيدى والأخلاقى ، وهو ما لا نسلم به .

والآن جاء دور القرآن . ولست أنوى أن أناقش كل الآيات المتعلقة بالعلم فى القرآن المجيد ، فما أكثر الكتب التى قامت بهذه المهمة ، وإن غالى بعضها فى الربط بين حقائق العلم الحديث ونظرياته وبين بعض الآيات التى يصعب على الدارس الموضوعى أن يرى فيها شيئا قاطعا أو على الأقل واضحا يربطها بالحقائق العلمية الثابتة ، ودعك من أولئك الذين يرون فى بعض الآيات أشياء لا وجود لها ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، وإنما سأكتفى بإيراد عدد من الآيات التى بهذا الشكل ، وسأقف عند بعضها مستثنيا بعض الشىء . اقرأ مثلا هذه الآيات الكريمة ، وراجع بنفسك تفسيرها فى ضوء العلم الحديث : « ويسألونك عن المحيض . قل : هو أذى . فاعتزلوا النساء فى المحيض ، ولا تقربوهن حتى يطهرن ... » (١٣٧) . « وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته ، حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت ، فأنزلنا به الماء ، فأخرجنا به من كل

---

(١٣٧) البقرة / ٢٢٢ .

الثمرات » (١٣٨) • « وينزل من السماء من جبال فيها من برد » (١٣٩) • « وإن لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين » (١٤٠) • « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين • ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين • ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونا العظام لحما ، ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين » (١٤١) • « وجعلنا من الماء كل شىء حى ••• » (١٤٢) « يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق فى ظلمات ثلاث » (١٤٣) • « والشمس تجرى لمستقر لها • ذلك تقدير العزيز العليم • والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم • لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار • وكل فى فلك يسبحون » (١٤٤) • « فلينظر الإنسان مم خلق • خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب »(١٤٥)•

ولنعد مرة ثانية إلى الدكتور بوكاى ، الذى يقول : « ومن الثابت فعلا أنه فى فترة تنزيل القرآن ••• كانت المعارف العلمية

---

(١٣٨) الأعراف / ٥٧ •
(١٣٩) النور / ٤٤ •
(١٤٠) النحل / ٦٦ •
(١٤١) المؤمنون / ١٣ ـ ١٤ •
(١٤٢) الأنبياء / ٣٠ •
(١٤٣) الزمر / ٦ •
(١٤٤) يس / ٣٨ ـ ٤٠ •
(١٤٥) الطارق / ٥ ـ ٧ •

فى مرحلة ركود منذ عدة قرون ، كما أن عصر الحضارة الإسلامية النشط مع الازدهار العلمى الذى واكبها كان لاحقا لنهاية تنزيل القرآن • إن الجهل وحده بهذه المعطيات الدينية والدنيوية هو الذى يسمح بتقديم الاقتراح الغريب الذى سمعت بعضهم يصوغونه أحيانا ، والذى يقول إنه إذا كان القرآن فيه دعاوى ذات صفة علمية مثيرة للدهشة فسبب ذلك هو تقدم العلماء العرب على عصرهم ، وإن محمدا صلى الله عليه وسلم بالتالى قد استلهم دراساتهم • إن من يعرف ، ولو يسيرا ، تاريخ الإسلام ، ويعرف أيضا أن عصر الازدهار الثقافى والعلمى فى العالم العربى فى القرون الوسطى لاحق لمحمد صلى الله عليه وسلم ، لن يسمح لنفسه بإقامة مثل هذه الدعاوى الوهمية • فلا محل لأفكار من هذا النوع ، وخاصة أن معظم الأمور العلمية الموحى بها أو المصوغة بشكل بين تماما فى القرآن لم تتلق التأييد إلا فى العصر الحديث • من هنا ندرك كيف أن مفسرى القرآن (بما فى ذلك مفسرو عصر الحضارة الإسلامية العظيم) ، قد أخطأوا حتما وطيلة قرون ، فى تفسير بعض الآيات التى لم يكن باستطاعتهم أن يفطنوا إلى معناها الدقيق » (١٤٦) •

وهنا نصل إلى الآيات التى ذكرت آنفا أننى أحب أن أستأنى عندها قليلا ، فق وجدت فى التفاسير القديمة ما يؤكد هذا الذى يقوله الدكتور بوكاى ، ففى تفسير قوله تعالى :

(١٤٦) د٠ بوكاى / ١٤٥ ـ ١٤٦ ٠

« وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون • ثم كلى من كل الثمرات ، فاسلكى سبل ربك ذللا ، يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه ، فيه شفاء للناس ••• » (١٤٧) ، إذ يقول الشريف الرضى : « والعسل عند المحققين من العلماء غير خارج من بطون النحل ، وإنما تنقله بأفواهها من مساقطه ومواقعه من أوراق الأشجار وأضغاث النبات ، لأنه يسقط كسقوط الندى فى أماكن مخصوصة وعلى أوصاف معلومة • والنحل تتبع تلك المساقط ، وتعهد تلك المواقع فتنقل العسل بأفواهها إلى كوراتها ، والمواضع المعدة لها ، فقال سبحانه : « يخرج من بطونها » والمراد « من جهة بطونها »، وجهة بطونها أفواهها • وهذا من غوامض هذا البيان وشرائف هذا الكلام » (١٤٨) • فانظر كيف أن العلماء المحققين حتى عصر الشريف الرضى (القرن الخامس الهجرى) يقررون أن العسل لا يخرج من بطون النحل ، ومن ثم عد هو قوله تعالى : « يخرج من بطونها شراب ••• » مجازا من مجازات القرآن ، التى أدار عليها كتابه الذى اقتبسنا منه النص السابق • والصواب هو ما قاله القرآن من أن العسل يخرج فعلا من بطون النحل ، التى تجمع الرحيق ، ويتحول فى معدتها إلى عسل تقوم بإفرازه بعد

---

(١٤٧) النحل / ٦٨ ـ ٦٩ •

(١٤٨) الشريف الرضى / تلخيص البيان فى مجازات القرآن / ١٩٣ •

ذلـــك [149] .

وفى خطأ مشابه يقع الإمام الباقلانى ، إذ يعد قوله تعالى : « والله خلق كل دابة من ماء ... » [150] نوعا من التعميم فى التعبير ، فقد ظن أن القرآن ، حينما قال إن كل الدواب مخلوقة من ماء ، لم يقصد أنها كلها كذلك بل بعضها فقط ، ولكنه عمم القول . فماذا يقول علماء العصر الحديث ، الذين قتلوا هــذه المسألة بحثـــا ؟ « الثابت بالتحديد أن أصل الحياة مائى ، وأن الماء هو العنصر الأول المكون لكل خلية حية ، فلا حياة ممكنـــة بلا ماء . وإذا ما نوقشت إمكانية الحياة على كوكب ما فإن أول سؤال يطرح هو : أيحتوى هذا الكوكب على كمية من الماء للحياة عليه ؟ » [151] والطريف أن الباقلانى قال قوله ذاك دفاعا عما ظنه الملحدون فى عصره مطعنا فى القرآن الكريم . وهذا نص كلامه : « وأما قوله عز وجل : « والله خلق كل دابة من ماء ... » قال الملحدون : وفى هذه الآية إحالة من وجوه ، أحدها أنه خلق كل دابة من ماء وليس الأمر كذلك ، لأن منها ما يخلق من بيض

(١٤٩) انظر مادة « عسل النحل » فى « الموسوعة الثقافية » . أما البيضاوى ، وهو متأخر عن الشريف الرضى بنحو ثلاثة قرون ، فإنه يأخذ بالتفسير الصحيح للعبارة ، لكنه يذكر أيضا الرأى الآخر من غير تعقيب .

(١٥٠) النـــور / ٤٥ .

(١٥١) د. بوكـاى / ٢١٢ . وانظر كذلك تفسير هذه الآية فى « المنتخب فى تفسير القرآن الكريم » والتعليق العلمى فى أسفل الصفحـــة .

وتراب ونطف ... والجواب أن قوله « كل » لا يقتضى استغراق الجنس ، بل هو صالح للتعميم والتخصيص . ولو ثبت العموم لجاز تخصيصه إذ علمنا أن من الدواب ما لم يخلق من ماء . على أن من الناس من يقول : أصل الأشياء كلها أربع : المـــاء والهواء والنار والأرض ، وكل دابة مركبة من بلة ورطوبة »(١٥٢).

والآيتان السابقتان وتعليق الشريف الرضى والباقلانى عليهمـــا لا يحتاجان إلى تعقيب ، اللهم إلا القول بأن هذين العالمين قد أتيا بعد سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام بعدة قرون أحرز المسلمون أثناءها تقدما علميا كبيرا جـــدا بالقياس إلى معارف العرب بل والعالم كله فى عصر الرسول ، ومع ذلك فالقرآن على صواب وهذان العالمان ، وهما يعكسان معارف عصريهما ، همـــا المخطئـــان .

ويمكن أن نلحق بهاتين الآيتين قوله تعالى : « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء ... » (١٥٣) ، فقـــد فسر البيضاوى ، وهو مفسر متأخر نسبيا (عاش فى القرن الثامن الهجرى) ، عبارة « كأنما يصعد فى السماء » على النحو التالى : « شبهه (أى شبه الله من يريد أن يضله)، مبالغة فى ضيق صدره، بمن يزاول ما لا يقدر عليه ، فإن صعود السماء ، مثل فيما يبعد

(١٥٢) الباقلانى / نكت الانتصار لنقل القرآن / ٢٠٢ .
(١٥٣) الأنعـــام / ١٢٥ .

عن الاستطاعة . ونبه على أن الإيمان يمتنع منه كما يمتنع الصعود . وقيل : معناه : كأنما يتصاعد إلى السماء نبوا عن الحق وتباعدا فى الهرب منه » . أما تفسير الآية فى ضوء مكتشفات العلم التجريبى فهو أن الذى يضله الله يشعر بنفس ضيق الصدر الذى يحسه الصاعد فى طبقات الجو العليا حيث الهواء مخلخل فلا تجد الرئتان كفايتهما من الهواء والأكسجين (١٥٤) . وأنا ، وإن لم أكن متخصصا فى أى فرع من العلوم الطبيعية ، يصعب على أن أوافق الدكتور موريس بوكاى ، الذى يؤكد أن هذه الآية تعبر عن فكرة عادية تماما ، والذى يخالف من يقولون إن فكرة ضيق التنفس كانت مجهولة عند العرب فى عصر الرسول عليه الصلاة والسلام ، لأن وجود مرتفعات عالية تربو على ٣٥٠٠ متر فى شبه الجزيرة العربية يجعل من غير المنطقى ، فى رأيه ، القول بجهل صعوبة التنفس الناشئة عن الارتفاع (١٥٥) . وتنهض مخالفتى للدكتور بوكاى على أساس أن الآية تتحدث عن « التصعد فى السماء » وهو ما لم يكن متاحا لأى إنسان فى عصر الرسول عليه الصلاة والسلام (بغض النظر عن حادث المعراج) ولا فيما بعده ببضعة عشر قرنا ، لا « التصعيد فى الجبال » كما يفيد كلامه . كذلك فإن الرسول عليه الصلاة والسلام ، كما نعرف من سيرته الشريفة ، لم يصعد غير جبلى حراء وثور ، أولهما فى فترة التحنث السابقة على

---

(١٥٤) انظر مثلا مالك بن نبى / الظاهرة القرآنية / ٢٨٧ .
(١٥٥) د. بوكاى / ٢٠٩ .

البعثة ، والثانى فى طريقه هو وأبى بكر إلى يثرب • ولم ترد فى السيرة أية إشارة ، ولو من بعيد ، إلى أى أثر لهذا الصعود على جهازه التنفسى عليه الصلاة والسلام • بل إننى لا أذكر أن أحدا من كتاب السيرة فى العصر الحديث ممن صعد هذين الجبلين قد ألمح إلى مثل هذا الأثر ، على رغم حرصهم الشديد على تسجيل كل مايعتريهم أثناء ذلك من تأثرات عضوية أونفسية• ولم يثبت أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد زار صنعاء ، التى يشير إليها الدكتور بوكاى (١٥٦) • بل إننى أستبعد أن يكون سكان مثل هذه المدن العالية فى ذلك العصر ، حتى لو كانوا أحسوا بشىء من هذا ، قد تنبهوا إلى السبب الحقيقى لذلك • وأحب أن أكرر القول ، كيلا ننسى ، أن القرآن يتحدث عن « التصعد فى السماء » لا « التصعيد فى الجبال » • ثم ها هى كتب التفسير القديمة ، لا تجدها حين تبلغ هذه الآية إلا تقول إن المقصود هو أن الكافر الذى أغلق قلبه يستحيل عليه الإيمان كما يستحيل على أى بشر أن يصعد فى السماء ، وهو ما يدل دلالة قاطعة على أن فكرة ضيق التنفس المشار إليها كانت مجهولة لدى هؤلاء المفسرين ، الذين كانوا بلا شك يعيشون فى ظل حضارة متقدمة أعظم التقدم بالقياس إلى الحياة البدائية التى كان يحياها عرب الجاهلية وعصر المبعث •

وثمة آية أخرى أرانى ، رغم عدم تخصصى كما سلف القول

---

(١٥٦) المرجع السابق (بالهامش) •

فى أى من العلوم الطبيعية ، مضطرا إلى أن أخالف ، فى تفسيرها، الدكتور بوكاى ، الذى يكرر كلام المفسرين القدامى • وهذه الآية هى : « وهو الذى مرج البحرين : هذا عذب فرات ، وهذا ملح أجاج ، وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا » (١٥٧) • وفى تفسيرها يقول د• بوكاى : « معروفة تلك الظاهرة التى كثيرا ما تشاهد عن عدم الاختلاط الفورى لمياه البحر المالحة بالمياه العذبة للأنهار الكبيرة • ويرى البعض أن القرآن يشير إليهـا لعلاقتها بمصب نهرى دجله والفرات ، اللذين يشكلان بالتقائهما بحرا ، إذا جاز القول ، طوله أكثر من ١٥٠ كم ، هو شط العرب• وفى الخليج ينتج تأثير المد ظاهرة طيبة هى انحسار الماء العذب إلى داخل الأراضى ، وذلك يضمن ريا طيبا » (١٥٨) • والحقيقة أن هذا التفسير غير مقنع : فمن الناحية اللغوية يصعب على أن أوافـق العالم الفرنسى ومفسرينا القدامى على أن أداة التعريف فى « البحرين » هنا هى للعهد ، الذى قيل على أساسه إن «البحرين» المذكورين هما دجلة والفرات • إن الآيات السابقة تتحدث عن الظل (الظلام) والرياح والماء والأنعام والأناسى ، وهى مفاهيم عامة لا تشير إلى ظلام بعينه ولا رياح بعينها ولا ماء معين ولا أنعام ولا أناسى مخصوصة ، فلم يقـال إذن إن « البحرين » هنا هما بحران معينان (دجلة والفرات) ؟ إن

---

(١٥٧) الفرقـــان / ٥٣ •

(١٥٨) د• بوكاى / ٢٠٥ • وانظر كذلك ، فى تفسير هذه الآية ، البيضاوى والزمخشرى والنسفى والجلالين مثلا •

السياق الذى وردت فيه هذه الكلمة هو سياق عام ، ومن ثم فإن بلاغة الكلام تقتضى أن يكون « البحران » أيضا همـا « النهر والبحر » بإطلاق ، أى أن (ال) فيهما هى (ال) الجنس لا العهد . فهذا من ناحية اللغة والبلاغة ، وفضلا عن ذلك فإن ماء النهر ، مهما توغل بقوة اندفاعه إلى مدى بعيد فى داخل البحر أو المحيط ، يختلط فى النهاية بمائهما ، ومن ثمة فإن ظاهر الأمر أن النهر يبغى فى البداية على البحر (عندما شق ماءه الملح وأزاحه عن طريقه) ليعود البحر فيبغى فى النهاية عليه (عندما اختلط ماؤه العذب بماء البحر الملح الذى أفقـده خاصية العذوبة وأعطاه بدلا منها ملوحته) ، فأين البرزخ إذن والحجر المحجور ؟ أما « المنتخب فى تفسير القرآن الكريم » فإنه يقول فى هامش خصصه للتعليق على هذه الآية إنها ربما « تشير إلى نعمة الله على عباده بعدم اختلاط الماء الملح المتسرب من البحـار فى الصخور القريبة من الشاطئ بالماء العذب المتسرب إليها من البر اختلاطا تاما ، بل إنهما يلتقيان مجرد تلاق : يطفو العذب منهما فوق الملح كأن بينهما برزخا يمنع بغى أحدهما على الآخر وحجرا محجورا ، أى حاجزا خفيا مستورا لا نراه » . لكن ثمة نقطة هامة يبدو لى أن كاتبى هذا التعليق ، على رغم جدته وطرافتـه (بالنسبة لى على الأقل) قد أغفلوها ، إذ إن الماء العذب والماء الملح اللذين يلتقيان فى الشقوق على هذا النحو لا يمكن تسميتهما بحرين . ثم إذا كان الماءان فى هذه الظروف لا يلتقيان ، فإنهما فى عرض البحر والمحيط يلتقيان ويتمازجان ويصبحان فى النهاية

ماء واحدا ، كما قلنا من قبل . يبدو لى ، والله أعلم ، أن البرزخ المذكور فى هذه الآية هو القوانين التى بمقتضاها بقى كل من الماء العذب والملح كل هذه الدهور المتطاولة التى لا يعلم مداها إلا الله، وسيبقيان إلى أن يرث الله الأرض والسماوات موجودين، فالأنهار تصب فى البحار والمحيطات ، وكان المفروض ، لو أن الأمر انتهى عند هذا الحد ، أن يختلط الماءان اختلاطا دائما ، فلا ينفصلان بعد ذلك أبدا ، ويصبح كل الماء الموجود على سطح الأرض ماء ملحا . بيد أن التقدير الإلهى قد شاء أن يقوم البحر بحمل الماء من البحار والمحيطات ، فتسوقه الرياح ليسقط على الجبال وينحدر إلى الأنهار ماء عذبا كما كان ، وهكذا دواليك . وهكذا أيضا يبقى الماء العذب والماء الملح . ويتعايش البحران دون أن يبغى أحدهما على الآخر ويقضى عليه . فهذا هو البرزخ وهذا هو الحجر المحجور ، فيما أفهم ، والله أعلم . كما يبدو لى أن هذه الآية ، إلى جانب امتنانها على العباد بهذه النعمة الإلهية ، تتضمن معنى مجازيا ، فإنى أظن أن المقصود بالماء العذب هنا المؤمنون وبالماء الملح الكافرون ، والمعنى هو أن الإيمان والكفر سيبقيان إلى آخر الدهر لا يستطيع أحدهما أن يقضى على الآخر تماما . والذى دعانى إلى هذا التفسير هو مافهمته من أولى الآيات التى تتحدث عن ظواهر الطبيعة فى السياق الذى وردت فيه آيتنا هذه ، والآية التى أشير إليها هى : « ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ، ولو شاء لجعله ساكنا ، ثم جعلنا

الشمس عليه دليلا • ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا » (١٥٩) • أما المعنى المجازى الذى لمحتــه فيها ، بجانب معناها الظاهرى ، فهو أن الله يطمئن الرسول أن كفر قومه ، المرموز إليه هنــا بالظل (أى الظلام)، إن كان الآن ممدودا فإن الله قابضه رويدا رويدا ، ومبزغ شمس الإيمان عما قليل • والذى أوحى إلى بهذا المعنى هو السياق الذى وردت فيه هذه الآية هى وآية : « وهو الذى مرج البحرين ••• » ، فقد كان المولى سبحانه يتكلم عن الأمم السابقة التى كذبت برسلها عنادا وطغيانا ، فأهلكها الله بعد أن كانت مستعزة بقوتها وانتشار سلطانها ، فبدت لى النقلة إلى الحديث عن بعض الظواهر الطبيعية غير مفهومة إلا فى ضوء هذا المعنى المجازى •

ونأتى الآن إلى آخر آية أحب أن أتريث عندها قليلا ، وهى قوله تعالى : « وما يستوى البحران : هذا عذب فرات سائغ شرابه ، وهــذا ملح أجــاج • ومن كل تأكلون لحمــا طريا ، وتستخرجون حلية تلبسونها ••• » (١٦٠) • فما أكثر ما قرأت هذه الآية ولكن لم ألتفت إلى ما تنبهت إليه وأفزعنى منذ فترة ليست بالبعيدة ، وهو ما تؤكده الآية من أن الحلى تستخرج من النهر والبحر كليهما ، إذ إن الذى كنت أعرفه حتى ذلك الوقت هو أن اللؤلؤ والمرجان (المذكورين فى آية مشابهة فى ســورة

---

(١٥٩) الفرقــان / ٤٥ ـ ٤٦ •
(١٦٠) فاطــر / ١٢ •

« الرحمن ») لا يوجدان إلا فى البحار • وقفز السؤال إلى عقلى على الفور مفزعا : « أيمكن أن يكون القرآن قد أخطأ ؟ » • إن هناك عدة آيات مشابهة فى سورة «الرحمن» ، ولكنها لا تثير أية مشاكل ، فنصها هو : « مرج البحرين يلتقيان • بينهما برزخ لا يبغيان • فبأى آلاء ربكما تكذبان • يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان » (١٦١) ، ومعناه أن اللؤلؤ والمرجان يخرجان من مجموع البحرين لا من كل منهما ، كما تقول : « إن فى يدى هاتين مائة جنيه » ، ويكون المبلغ كله فى اليد الأولى بينما الثانية خلو تماما من أى نقود ، ولا تكون قد عدوت الحقيقة • أما آية سورة « فاطر » فإنها تقول بصريح العبارة : « ومن كل ••• تستخرجون حلية تلبسونها » • ولم يسعفنى ما عندى من تفاسير قديمة ، فأخذت أقلب نظرى فى أرفف مكتبتى وأنا حائر ضائق ، وإذا بى ألمح ترجمة يوسف على للقرآن فأفتحها فأجد فيها شفاء نفسى ، إذ يذكر المترجم رحمه الله (فى تعليقه على هذه الآية فى الهامش) من الحلى البحرى اللؤلؤ والمرجان ، ومن الحلى النهرى العقيق وبرادة الذهب وغيرهما • ثم رجعت بعد ذلك إلى دائرة المعارف البريطانية (مادة Pearl) و « المنتخب فى تفسير القرآن الكريم » فوجدت أن اللؤلؤ يوجد أيضا فى المياه العذبة (١٦٢) • وكأن الكتاب الأخير يرد على حيرتى ، إذ يقول : « وقد يستبعد بعض الناس أن تكون المياه

(١٦١) الرحمن / ١٩ ـ ٢٢ •
(١٦٢) « المرجان » هنا هو اللؤلؤ الكبير •

العذبة مصدرا للحلى ، ولكن العلم والواقع أثبتا غير ذلك • أما اللؤلؤ فإنه ، كما يستخرج من أنواع معينة من البحر ، يستخرج أيضا من أنواع معينة أخرى من الأنهار ، فتوجد اللآلىء فى المياه العذبة فى إنجلترا وأسكتلندا وويلز وتشيكوسلوفاكيا واليابان ••• إلخ، بالإضافة إلى مصايد اللؤلؤ البحرية المشهورة، ويدخل فى ذلك ما تحمله المياه العذبة من المعادن العالية الصلادة كالماس ، الذى يستخرج من رواسب الأنهار الجافة المعروفة باليرقة • ويوجد الياقوت كذلك فى الرواسب النهرية فى موجوك بالقرب من باندالاس فى بورما العليا • أما فى سيام وفى سيلان فيوجد الياقوت غالبا فى الرواسب النهرية • ومن الأحجار شبه الكريمة التى تستعمل فى الزينة حجر التوباز ويوجد فى الرواسب النهرية فى مواقع كثيرة منتشرة فى البرازيل وروسيا (الأورال وسيبيريا) وهو فلورسيليكات الألمونيوم ، ويغلب أن يكون أصفر أو بنيا • والزيركون CIRCON حجر كريم جذاب تتقارب خواصه من خواص الماس ، ومعظم أنواعه الكريمة تستخرج من الرواسب النهرية » (١٦٣) • وحتى يقدر القارىء رد فعلى الأول حق قدره أذكر له أنه حتى بعض المترجمين الأوربيين فى العصر الحديث قد استبعدوا أن تكون الأنهار مصدرا من مصادر الحلى• وقد تجلى هذا فى ترجمتهم لهذه الآية ، فمثلا نرى رودويل الإنجليزى يترجم الجزء الخاص بالحلى منها هكذا :

---

(١٦٣) « المنتخب فى تفسير القرآن الكريم » فى التعليق على الآية / ١٢ من سورة « فاطر » •

Yet from Both ye eat fresh fish, and take forth for you ornaments to wear.

فعبارة "from both" تصلح لترجمة آية سورة «الرحمن» لا هذه الآية • كذلك ينقل رودى باريت هذه العبارة إلى الألمانية على النحو الآتى : "Aus beiden eBt ihr frishes feisch".

إلى هنا والترجمة صحيحة ، فهذه العبارة تقابل بالضبط قوله تعالى : « ومن كل تأكلون لحما طريا » وإن كان استخدم فى مقابل « طريا » كلمة "Frisch" ومعناها الدقيق « طازج » •

لكن تنبه لترجمته للجزء الآتى الذى يقول فيه :

und (aus dem Salzmeer) geurnnt ihr schmuck...... um ihm euch anzulegen.

والذى ترجمته : «وتستخرجون (من البحر الملح) حلية تلبسونها » • ويرى القارىء أن المترجم قد أضاف من عنده بين قوسين عبارة : « من البحر الملح : aus dem Salzmeer » ، وهو ما يوحى باستبعاده أن تكون الأنهار مصدرا من مصادر اللؤلؤ والعقيق وغيرهما من أنواع الحلى على ما تقول الآية الكريمة • (أما ترجمتا سيل وبالمر (الإنجليزيتان) وترجمتا كازيمريسكى وماسون (الفرنسيتان) ، وكذلك ترجمتا ماكس هننج ومولانا صدر الدين (الألمانيتان) على سبيل المثال فقد ترجمت كلها النص القرآنى كما هو ، ولكنها لزمت الصمت فلم تعلق بشىء •

ويرى القارىء من هذه الآية بالذات كيف أن القرآن قبل أربعة عشر قرنا قد أشار إلى حقيقة يستبعدها واحد مثلى يعيش فى القرن العشرين ، وآخرون مثل المستشرق الإنجليزى رودويل

ونظيره الألماني رودي باريت ، فكيف عرفها الرسول عليه الصلاة والسلام إذن وأداها بهذه البساطة لو كان هو مؤلف القرآن ، وبخاصة أن الأنهار التي ذكر أن اللؤلؤ وغيره من الأحجار الكريمة وشبه الكريمة تستخرج منها تقـع في بـلاد سحيقة بالنسبة للجزيرة العربية ، بل إن بعضها كالبرازيل مثلا لم تكتشف إلا في العصور الحديثة ؟

فإذا قارنا بين الكتاب المقدس والقرآن في هذا الصـدد راعنا أن المؤمنين بالكتاب المقدس كانوا يصدقون تصديقاآعمى بكل ما جاء فيه على حرفيته على أساس أن كل كلمة بل كل حرف فيه وحي إلهي ، ثم اضطروا اضطرارا تحت مطارق الحقائق العلمية القاطعة إلى أن يهجروا هذه النظرية إلى نظرية أخرى ملخصها أنه لا ينبغي أن يؤخذ النص على حرفيته ، بخلاف بعض مفسري القرآن الكريم القدماء الذين كانوا يرون في بعض الآيات لونا من المجاز أو توسعا في التعبير ، ثم جاءت المعارف العلمية القاطعة فأثبتت أنهم كانوا مخطئين في هذا الموقف وأن الآيات تعني تماما ما عبرت عنه .

المراجع

- القرآن الكريم .
- الكتاب المقدس .
- ابن حزم / الفصل فى الملل والأهواء والنحل / مكتبة السلام العالمية / القاهرة .
- د. إبراهيم عوض / تفسير سورة التوبة / ١٩٨٧ .
- د. أحمد زكى / مع الله فى السماء / كتاب الهلال / عدد ٣١١ / نوفمبر ١٩٧٦ .
- البيضاوى (تفسير) .
- د. توفيق الطويل / فى تراثنا العربى والإسلامى / عالم المعرفة / عدد ٨٧ / مارس ١٩٨٥ .
- الجلالين (تفسير) .
- الزمخشرى (تفسير) .
- الشريف الرضى / تلخيص البيان فى مجازات القرآن (تحقيق محمد عبد الغنى حسن) ط / ١ .
- مالك بن نبى / الظاهرة القرآنية (ترجمة عبد الصبور شاهين) / مكتبة دار العروبة / القاهرة / ١٩٥٨ .

* محمد عبده / الإسلام بين العلم والمدنية / كتاب الهلال / عدد ٣٨٥ / يناير ١٩٨٣ .

- محمد عبده / رسالة التوحيد / كتاب الهلال / عدد ٣٥٥ / يوليــة ١٩٨٠ ·
- محمد فؤاد عبد الباقى / المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ·
- محمود شلتوت / تفسير القــرآن الكريــم / الأجــزاء العشرة الأولى / دار القلم / القاهرة / ط ٢ ·
- المنتخــب فى تفسير القرآن الكريم ·
- د· موريس بوكاى / القرآن والتوراة والإنجيل والعلم ـ دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة / دار المعــارف / القاهرة ١٩٨٢ ·
- الموسوعة الثقافية / دار الشعــب ·
- النســفى (تفسير) ·
- همايون كبير / العلم والديمقراطية والإسلام (ترجمة عثمان نويه) / دار الهــلال ·

- Alexander Cruden, Cruden's Concordance, The Epworth Press, London, 1952.
- Cambridge Companion to the Bible, Cambridge Univ. Press, 1892.
- C.H. Dodd, The Authority of the Bible, Fontana Books, 1960.
- Ch. Gore, H.L. Goudge, A. Guillaume, A New Commentary on Holy Scripture Including the Apocrypha, London Society for Promoting Christian Knowledge, 1929.
- Edward Clodd, Childhood of Religions, Henry S. King & Co., London, 1875.
- Encyclopaedia Britannica, Vol. 5, ed. 14, 1938.
- George Townshend, Christ et Bahà'-u'llah, Maison d'Editions Bahà'ies, Bruxelles, 2e ed., 1968.
- Georges Marchal, Promotion de l'Islam, Berget Leurault, Paris, 1957.
- J.D. Douglas (editor), The New Bible Dictionary, Inter-Varsity Press, London, 1972.
- Joseph Hubby, Christus-Manuel d'histoire des religions, Bauchesne et ses fils, Paris, 1946.
- Maulana Sadr-ud-din, Der Koran, die Muslimische Mission, Berlin, 1964.
- Max Henning, Der Koran, Reclam, Stuttgart, 1981.

- Rudi Paret, Der Koran, W. Kholhammer, Stuttgart, 1963.
- Stanley Cook, An Introduction to the Bible, Pelican Books, 1945.
- W.F. Hook, Hook's Church Dictionary, London, John Murry, 1887.
- William Neil, William Neil's One Volume Bible Commentary, Hodder & Stoughton, London - Sydney - Auckland - Toronto, 1973.

للمؤلــــف

١ ـ الترجمة من الإنجليزية ـ منهج جديد ٠

٢ ـ في الشعر الإسلامي والأموي ـ تحليل وتذوق ٠

٣ ـ في الشعر العباسي ـ تحليل وتذوق ٠

٤ ـ في الشعر الأندلسي ـ تحليل وتذوق ٠

٥ ـ في الشعر العربي الحديث ـ تحليل وتذوق ٠

٦ ـ فصول من النقد القصصي ـ رؤية جديدة ٠

٧ ـ من أعلام النقد القصصي (بالإنجليزية والعربية) ٠

٨ ـ المستشرقون والقـرآن ٠

٩ ـ مصدر القرآن ـ دراسة في الإعجاز النفسي ٠

١٠ ـ من الطبري إلى سيد قطب ـ دراسة في مناهج التفسير ومذاهبه ٠

١١ ـ تفسير ســورة المـائدة ٠

١٢ ـ تفسير ســورة التـوبة ٠

١٣ ـ محمــود طاهــر لاشــين ٠

١٤ ـ نقـد القصــة في مصــر ٠

١٥ ـ NOVEL - CRITICISM IN EGYPT

١٦ ـ المتنبي ـ دراسة جديدة لحياته وشخصيته ٠

١٧ ـ معركة الشعر الجاهلى بين الرافعى وطه حسين ـ بحث موضوعى مفصـــل ٠

١٨ ـ لغـة المتنبى ـ دراســة تحليليـة ٠

١٩ ـ موقف الكتاب المقدس والقرآن الكريم من العلم (تحت الطبع) ٠

٢٠ ـ المتنبى بإزاء القرن الإسماعيلى فى تاريخ الإسلام ـ لماسينيون (ترجمة وتعليق ودراسة د٠ ابراهيم عوض) ـ (تحت الطبع)٠

مطبعة الشباب الحر ومكتبتها
ت : ٢٩٠٧٦٢١ القاهرة

رقم الايداع ٨٥٦٥/٨٧